واقع القيم الاجتماعية في ضوء تكنولوجيا المعلومات الحديثة

The reality of social values in the light of modern information technology

محمد عبد الرؤوف بن سبع[1]، محمد الصالح عوين[2،*]

[1] مخبر التغيير الإجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر، جامعة محمد خيضر-بسكرة (الجزائر)،

ma.bensebaa@univ-biskra.dz

[2] مخبر التنمية التنظيمية وإدارة الموارد البشرية، جامعة لونيسي علي-البليدة (الجزائر).

em.aouine@univ-blida2.dz

تاريخ الاستلام : 2019/11/03 ؛ تاريخ المراجعة : 2020/10/09 ؛ تاريخ القبول : 2020/11/10

ملخص : نهدف من خلال هذه الورقة البحثية إلى تحليل أحد مواضيع الساعة الراهنة و التي فرضت نفسها بقوة، وخاصة في ظل العولمة وهو موضوع التقدم التكنولوجي و تأثيراته المختلفة على مجموعة القيم السائدة في المجتمعات العربية و خاصة منها الجزائرية لما لها من دور كبير في تغير بعض القيم السائدة في المجتمعات وخاصة في العالم الثالث، حيث أن عولمة الثقافة – كما يصطلح عليها- تعمل على تغيير أسلوب تفكير الأشخاص.

لذلك ركزنا في هذا البحث على منظومة القيم السائدة في المجتمع و مدى تأثير التقدم التكنولوجي عليها من خلال الحداثة المادية، ومدى تكوين تكنولوجيا المعلومات الحديثة لنسق قيمي حتمي، وانعكاسات هذه الأخيرة على النسق القيمي للفرد.

الكلمات المفتاحية: القيم الاجتماعية- النسق القيمي- العولمة- تكنولوجيا المعلومات

Abstract : Through this paper, we aim to analyze one of the current topical issues that have imposed itself strongly, especially in the light of globalization. In societies, especially in the Third World, where the globalization of culture, as it is termed, is changing the way people think.

Therefore, we focused in this research on the system of values prevailing in society and the impact of technological advances on them through material modernity, and the extent of the formation of modern information technology to an inevitable value system, and the implications of the latter on the value system of the individual.

Keywords : Social values - Value system - Globalization - Information technology

* Aouine Med Salah: em.aouine@yahoo.com

1- مقدمة

إن بزوغ الاقتصاد العالمي وما نتج عنه من سياسات ونظم ووسائل جعل العالم عبارة عن منطقة جغرافية واحدة لا حدود لها، ترتبط مع بعضها البعض بفعل تلك الوسائل التي صممت لخدمة القوة الاقتصادية العالمية التي يمثلها النظام الرأسمالي، بحيث أصبح تطور تلك المؤسسات مرهونا بتطور الاقتصاد العالمي حتى صارت ماهي عليه الآن، ومن أهم تلك الوسائل هي تكنولوجيا المعلومات التي تحمل في طياتها ليس فقط القوة العلمية التي وصل إليها العقل البشري بل حتى المضامين الثقافية للبيئة التي نشأت فيها، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ أصبحت هذه التكنولوجيا تساهم في التواصل الكوني من تبادل السلع والمعلومات بين الشعوب والمجتمعات المختلفة عن بعضها البعض بحكم الخصوصية الثقافية والدينية والمستوى العلمي والإقتصادي، فأصبح هذا التفاعل الكوني محملاً بالثقافات والأيديولوجيات والمعارف المختلفة التي وجدت في التكنولوجيا مسلكا لتحقيق اللا توطين والنسبية الثقافية التي تفرض على شعوب العالم تغييرًا معتبراً في أساليب معاشها ورؤيتها للعالم، ومن بين الأبعاد الخطيرة التي تمس المجتمعات إثر تفاعلها بهذه التكنولوجيا هو التغير الثقافة للمجتمعات وما يحمله من أبعاد، إذ سنقوم في هذه المداخلة بتناول موضوع القيم الاجتماعية كبعد من أبعاد الثقافة المجتمعية التي تتأثر في تفاعلها مع تكنولوجيا المعلومات الحديثة والتي سنختار من بين تمظهراتها الأنترنت، من خلال تحليل كيف تأثر مواقع التواصل الاجتماعي على خصوصية القيم الاجتماعية وما تتضمنه من معايير توجه السلوك الإنساني وفق طبيعة البيئة الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها، وكيف أصبحت النزعة الفردية والحرية الشخصية بُعدا مهما في عملية التغير الثقافي للفرد ورؤيته للمرجعية الأخلاقية التي ينتمي إليها مجتمعه معبرا عن ذلك من خلال سلوكيات وردود أفعال ومواقف معينة، مُؤطرين تحليلنا بخصوصية المجتمع الجزائري كونه مجتمع مسلم منطلقين من السؤال التالي:

-كيف تؤثر الأنترنت في قيم المجتمع الذي يمتلك خصوصية كونه مجتمع يرتبط بالدين وتمثل الديانة الإسلامية المرجع الأول لقيمه الأخلاقية؟

1- القيم الاجتماعية والحداثة المادية:

إن منظومة الأفكار التي يتبناها مجتمع معين والتي على أساسها يحدد ما هو مرغوب فيه أو مكروه، تستند على النسق القيمي الذي يشكل المرجعية الأخلاقية لمجتمع معين، والذي تؤطره مجموعة من المعايير التي توجه وتحول تلك الأفكار المجردة إلى سلوك إجتماعي معين في بيئة ثقافية تمتاز بخصوصية تاريخية، "فالقيم ما هي إلا انعكاس للأسلوب الذي يفكر الأشخاص به في ثقافة معينة، وفي فترة زمنية معينة. كما أنها هي التي توجه سلوك الأفراد وأحكامهم واتجاهاتهم فيما يتصل بما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه من أشكال السلوك في ضوء ما يضعه المجتمع من قواعد ومعايير. وقد تتجاوز الأهداف المباشرة للسلوك إلى تحديد الغايات المثلى في الحياة" (خليفة، 1992، صفحة 14)، ويعرفها روبرت بارك على أنها أي شيء يحظى بالتقدير والرغبة، "وتتفاوت القيم والمعايير وتختلف إختلافاً بيّناً من ثقافة إلى أخرى، إن بعض الثقافات تسبغ قيمة عالية على النزعة الفردية بينما تشدد ثقافة أخرى على الإحتياجات المشتركة بين أفراد المجتمع، بل إن القيم تتناقض في المجتمع أو الجماعة الواحدة : فقد تميل بعض المجموعات أو الأفراد إلى التركيز على قيمة المعتقدات الدينية التقليدية، بينما تميل مجموعات أخرى إلى إعطاء قيمة أعلى للتقدم وللعلوم (غدنز، 2005، صفحة 83).

فالمجتمعات الدينية مثل المجتمع العربي الإسلامي تولي إهتماما كبيرا للقيم الدينية وتجعلها أساسا الاحتياجات المشتركة بين أفراد المجتمع، كما تجعل تلك القيم بمثابة الأرضية المعرفية المعيارية التي تستوجب توافق قيم ومبادئ المعرفة والعلوم مع ما يتضمنه الدين من معايير أخلاقية، إذ بدون ذلك ستلقى الرفض والإستهجان، عكس المجتمعات المتقدمة التي تفصل الدين عن نشاطها العلمي والسياسي والإقتصادي وتعطي قيمة عليا للمعرفة والعلوم بغض النظر عن تطابق مبادئها مع القيم الدينية التي يتبناها أفرادها، هذا لا يعني أن الدين هو سبب الجمود الفكري والعلمي لهذه المجتمعات، بل الإشكال يكمن في العقل الديني الذي أبى أن يجتهد في إخضاع القيم الدينية للنقد المعرفي في إطار ما جاءت به الحداثة من أفكار وعلوم وتكنولوجيا بغيت تطويرها وتحديثها لتصيح سدا منيعا أما الخطر الذي تأتي به، فأصبحت المجتمعات العربية الإسلامية تعيش تناقضا حضاريا يتضح من خلال تبني الحضارة المادية للغرب كالتكنولوجيا مثلا ورفض الفلسفة والمعارف والعلوم التي جاءت بتلك التكنولوجيا، فأصبحت هذه القطيعة المعرفية بمثابة حلقة مفقودة أو نقطة ضعف أمام ما جاءت به التكنولوجيا الحديثة وما تحمله من تعدد ثقافي قيمي، في عصر أصبح فيه الفرد هو سيد إختياراته وقناعاته وميولاته، عكس ما كانت عليه المجتمعات قبل ظهور تكنولوجيا المعلومات، حيث كانت الأجهزة الرقابية للدولة هي من تحدد نوع الأفكار والأيديولوجيا والقيم التي سيتلقاها الفرد ويتفاعل معها، فإذا كانت الدولة تمنع نشر نوع معين من الكتب، أصبحت تلك الكتب متوفرة على شبكة الأنترنت، وإذا كانت خلايا أمن الدولة تحارب جماعات ذات معتقدات وأيديولوجيات معينة، أصبحت تلك الجمعات تتواصل مع الفرد عبر مواقع التواصل الاجتماعي والمنتديات وغيرها، كما شاهدنا ذلك في إنتماء الأفراد من مختلف بقاع العالم إلى التنظيم الإرهابي " داعش " وكيف إستطاع هذا الأخير في تغيير قيم وإتجاهات الأفراد وزرع الأفكار الخاطئة في عقولهم عبر الأنترنت مما تسبب في أزمة أمنية وإجتماعية في أوروبا مؤخرا، "إذ تغير واقع التعدد أو التنوع الثقافي الذي شهدته المجتمعات الصناعية، وذلك بفعل عمليات الهجرة والإستعمار والحروب والعولمة التي أدت إلى إنتشار سكان الأرض وإنتقالهم من أوطانهم عبر الحدود للإستقرار في مناطق جديدة" (غدنز، 2005، صفحة 85)، وأصبح مفهوم التنوع أوسع مما كان عليه وذلك بفعل تكنولوجيا المعلومات، فمن الممكن أن ينتقل الفرد بضغطة زر إلى عوالم أخرى ويتفاعل مع ثقافتها ويتواصل مع أفرادها، فبعدما كان الفرد يعيش في سياق المكان والزمان أصبح الآن ينتقل بحرية إلى أي مكان وفي أي وقت شاء ذلك، "ويمكن ملاحظة أفكار ماكلوهان عن التأثير التوسعي ((المُزيح)) لتقنيات الإعلام والإتصالات، في تناوله لهذه التقنيات في كتابه **فهم وسائل الإعلام (1964)** على أنها إمتدادات للإنسان" (تومنيلسون، 2008، صفحة 208)، وبالتالي إختفى الوجود المادي في تجربة الأفراد وأصبحت العلاقة بين الفرد والبيئة التي يعيش فيها ويتلقى منها القيم الاجتماعية تتسم بالضعف والهشاشة، خاصة في عملية تلقي المعارف والأفكار، وأصبح التفاعل الاجتماعي رهين الوسائط الإلكترونية، وبالتالي يصبح مفعول القيم في تحديد نمط سلوك وعيش الأفراد في رهان مع تلك التي تحملها هذه الوسائط التي تمتلك القدرة التكنولوجية الكافية التي تساعدها على تقديم التجربة والفكرة والمعلومة بسرعة وسهولة وكفاءة، وفق رؤية حديثة وحجج علمية دقيقة تضع الفرد في موقع الشك والمراجع لجميع الأفكار المسبقة والقناعات والمعتقدات التي إكتسبها في مرحلة التنشئة الاجتماعية.

2 – الحتمية القيمية لتكنولوجيا المعلومات الحديثة :

في فضاء اللامحدود الذي أوجدته تكنولوجيا المعلومات يصبح الفصل بين المعلومة والتكنولوجيا أمرا مستحيلا، خاصة في سياق ما يشهده القرن الحالي من تحولات وتغيرات شاملة ومتنوعة آلت بالمجتمعات الكونية إلى تطورات كمية ونوعية في عملية الإتصال البشري، متأثرةً هذه المجتمعات بالدور الذي تلعبه وسائل الإعلام الحديثة والمكانة التي تحتلها في حياة الفرد بصفة خاصة وفي الفينومينولوجيا الاجتماعية بصفة عامة، مما أرغم المختصين في علوم الإتصال والمجتمع على الاهتمام بهذه الظاهرة الإنسانية البارزة في جميع أرجاء المعمورة، حيث أصبح اللاتوطين هو السمة البارزة للحداثة الكونية وما تنتجه من تعدد ثقافي وقيمي، ومن بين أهم النظريات الحديثة التي تناولت هذا التأثير الذي تمارسه تكنولوجيا المعلومات بما تحمله من قيم كامنة، هي نظرية الحتمية القيمية للمفكر الجزائري عبد الرحمن عزي، التي ترى في كل رسالة تحملها تنقلها هذه التكنولوجية فإنها بالضرورة تحمل معها قيم معينة يتلقاها الفرد بشكل مباشر أو غير مباشر، لكن قبل عرض هذه النظرية، يتوجب علينا تقديم النظرية التي إنطلقت منها أفكار عبد الرحمن عزي، وهي نظرية الحتمية التكنولوجية لـ "ماكلوهان مارشال" التي تقول بحتمية تبني المجتمعات لهذه التكنولوجيا التي أصبحت تمارس قهرا عليها لما لها من مزايا وظيفية ضرورية لمواكبة العصر الحديث .

1.2– نظرية الحتمية التكنولوجية لـ "ماكلوهان مارشال:

تتلخص أفكار ماكلوهان في كيفية تأثير تكنولوجيا الإتصال على واقع المجتمعات المختلفة، فهو ينظر إلى هذه الوسائل من زاويتين، الأولى كونها وسائل تساعد في نشر المعلومات والمعارف المختلفة كما أنها تنشر أنواع من الترفيه للمجتمع الإنساني، أما الزاوية الثانية ينظر لها من منطلق أنها سيرورة أو مرحلة من مراحل التطور التكنولوجي في حياة الإنسان، معتمدا في ذلك على منطق فكرة ماركس في الحتمية الاقتصادية والتي أثبتت أن النظم الاقتصادية جزء لا يتجزأ من مراحل التطور البشري، فحسب ماكلوهان تلعب تكنولوجيا المعلومات دورا أساسيا في عملية تطور المجتمعات وسببا منطقيا في التغيرات الثقافية والمعرفية التي تطرأ عليها. أما بالنسبة للنقطة التي ستركز عليها في بحثنا هذا ترتكز على الرؤية الأولى التي توضح أن تكنولوجيا المعلومات تشكل وسائط كونية إفتراضية تنقل المعارف والمعلومات من وإلى مختلف المجتمعات الإنسانية، فبإختيارنا لهذه الفكرة سنجد إهتمامنا ينصب نحو مضمون تلك المعارف والمعلومات التي تحملها التكنولوجيا من مختلف الثقافات والأيديولوجيات.

يرى ماكلوهان "أن وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع أو يضطر إلى إستخدامها ستحدد طبيعة المجتمع وكيف يعالج مشاكله وأي وسيلة جديدة هي إمتداد للإنسان، تشكل ظروفا جديدة محيطة تسيطر على ما يفعله الأفراد الذين يعيشون في ظل هذه الظروف، وتؤثر على الطريقة التي يفكرون ويعملون وفقا لها" (تواتي، 2013، صفحة 184)، كما يرى ماكلوهان أن "**الوسيلة هي الرسالة**" بمعنى أن طبيعة وشكل وسائل الإعلام الجديدة هي الرسالة الحقيقية الموجهة للمجتمع، وأن التغيرات التي تحدث في المجتمعات لا ترتبط بمضمون الرسالة التي تأتي بها هذه الوسائل بقدر إرتباطها بالوسيلة ذاتها، فالأنترنت والتلفاز مثلا شكلا نمط جديد لحياة أفراد المجتمع بحيث نجد أن الوقت الذي يقضيه الفرد أمام هذه التكنولوجيا أكبر من

الوقت الذي يتفاعل فيه مع أفراد المجتمع، والكم الهائل والمتنوع من المعلومات التي يتلقاها في الأنترنت مثلا أكثر من تلك التي يكتسبها عند قراءة كتاب مطبوع، فالأمر الذي يجعلنا نغفل مضمون مقولة **الوسيلة هي الرسالة** هو مضمون الوسيلة نفسها، وبالتالي نغفل أثر هذه الوسيلة على نمط تفاعلنا الاجتماعي وطبيعة التغيرات التي تطرأ على ثقافتنا وقيمنا.

أما "من الناحية الجيوسياسية يرى ماكلوهان أن وسائل الإعلام الجديدة حولت العالم إلى قرية صغيرة" (ماتلار، 2005، صفحة 140)، وبالتالي سقطة سلطة الزمان والمكان المحدودين، مميزا بهذه الفكرة نوعين من وسائل الإتصال التي تربط أجزاء هذه القرية الصغيرة ببعضها البعض وتجعلها تتفاعل فيما بينها، الأولى أَطلق عليها مصطلح الوسائل الساخنة: وهي التي تقدم المعلومة جاهزة وكاملة – وقف تقديرها هي – للمتلقي مما يتسبب لديه نقص في ملكة التفكير والتقصي، وبالتالي يبني تصوره للواقع وفقا لهذه المعلومات. أما النوع الثاني يتمثل في الوسيلة الباردة التي تتميز بالطرح الموضوعي وتفتح هامشا لحرية إختيار الفرد من خلال تقديم مختلف الآراء والمعلومات بطريقة موضوعية محايدة، وبالتالي يصبح الفرد في هذه الحالة يتقصى الحقيقة وفق تفكيره الخاص والذي على أساسه يحكم على الأحداث والمواضيع بالصدق أو الكذب ويحدد القيمة التي يعديها لكل ما يتفاعل معه، وهنا تثار الأسئلة حول ما يتلقاه الفرد من قيم وأفكار في ضوء ما يكتسبه من معارف ومعلومات داخل المجال الإفتراضي، ولكي نمنع إحتمال تهديدات تكنولوجيا المعلومات، يؤكد ماكلوهان "على أهمية إحاطة الناس بأكبر قدر ممكن من المعلومات عن وسائل الإعلام لأنه بمعرفته كيف تشكل التكنولوجيا البيئة المحيطة بنا، نستطيع أن نسيطر عليها ونتغلب تماما على نفوذها أو قدرتها الحتمية، وفي الواقع، بدلا من الحديث عن الحتمية التكنولوجية قد يكون من الأدق أن نقول أن المتلقي يجب أن يشعر بأنه مخلوق له كيان مستقل قادر على التغلب على هذه الحتمية" (تواتي، 2013، صفحة 184)، فمن خلال رصد عوامل إطلاق التغيير في هذه التكنولوجيا نستطيع السيطرة عليها فيما يخدم قيمنا الاجتماعية ويرتقي بها.

2.2- الحتمية القيمية لعبد الرحمن عزي:

جاءت نظرية الحتمية القيمية لـ عبد الرحمن عزي بأفكار مناهضة لتلك التي جاء بها ماكلوهان في نظريته الحتمية التكنولوجية، فنظرية الحتمية القيمية ترتكز على متغير القيم كبعد معياري، إذ ترى أن الوسيلة ليست هي الرسالة بل الرسالة هي المضمون القيمي الذي تحمله الوسيلة في المعلومة التي يتلقاها الفرد، "يعني ذلك أن أي عنصر أو ظاهرة إعلامية يفسر أو يفهم من حيث قربه أو تناقضه أو بعده من القيمة... إذا الرسالة هي القيمة" (بوعلي، 2014، صفحة 89)، وبما أن الدول العربية الإسلامية بشكل عام والجزائر بشكل خاص مجتمعات دينية، فإن المصدر الأول للقيمة بالنسبة لها هو القرآن والسنة، بمعنى أن أي مضمون تحمله تكنولوجيا المعلومات في رسالتها يمكن تقييمه من خلال قربه أو بعده عن القيم الإسلامية التي يمتثل لها المجتمع الإسلامي، وهنا ومنه يمكننا الحكم على نوع تأثير وسائل الإعلام على القيم الاجتماعية فإذا كانت القيم التي تحملها الوسائط الإلكترونية قريبة من القيم الاجتماعية للإسلام مثلا، فهذا يدل على التأثير الإيجابي النافع للرسالة على الفرد المسلم، أما عندما تكون القيم المحملة في الرسائل الإعلامية التي يتفاعل معها الفرد عبر الأنترنت مثلاه بعيدة عن قيمه الأخلاقية يكون التأثير سلبيا

مما يستدعي تجنب هذه المواد الإعلامية والوسائط التواصلية أو أن يتفاعل معها بحذر إذا إقتضت الضرورة.

فنظرية الحتمية القيمية ترتكز عند تقييمها للوسائل وما تحمله من رسائل على ثقافة الأفراد وما يمتازون به من خصوصية دينية أو قيمية، "فالرسالة تمثل المرجع في ضبط العلاقة بين الثقافة ووسائل الإعلام، فالثقافة مرجعية ثابتة في التاريخ وتتجدد بالفعل والممارسة، أما الوسيلة فقد تولدت في فضاء الثقافة وسعت إلى التعبير عن بعض مظاهر هذه الأخيرة، وإذا كانت وسائل الإتصال قد أنتجت ما يسمى بالثقافة الجماهرية فإنها لم تصبح ثقافة في حد ذاتها، لأن الثقافة الجماهرية وليدة المجتمع الجماهيري وليس العكس" (بوعلي، 2014، صفحة 90)، وبهذا المنطق أصبحت نظرية الحتمية القيمية تنظر إلى الواقع الاجتماعي في ضوء تكنولوجيا المعلومات بنظرة محايدة وأكثر موضوعية، بمعنى أن كل مجتمع يحكم على الرسالة التي يتلقاها أفراده إستنادا وإنطلاقا من الديانة أو القيم التي يتبناها، عكس التحليلات التي قامت بها النظريات الغربية خاصة عند علماء الاجتماع في دراستهم لظاهرة الإتصال الرقمي مثل موقف غيدنز من العولم، حيث طبعها التمركز الذاتي في التحليل والنظرة المتعالية تجاه المجتمعات الأخرى، معتبرة إياها طرف مستهلك لا منتج.

إذا جاء الباحث الجزائري عبد الرحمن عزي بهذه النظرية الفذة "محركا بها المياه الراكدة في نهر الأبحاث العربية – الإسلامية في مجال الإتصال والإعلام، مساهما بمجموعة من الدراسات العلمية التجريبية والأصيلة والمترابطة فيما بينها وفق متغير رئيس واحد هو القيمة التي مصدرها الدين" (فؤاد، 2014، صفحة 119)، ومتناسقة وفق مبادئ واضحة أهمها رؤية الإعلام عبارة عن رسالة تحمل قيماً يتم فحصها وتعييرها وغربلتها من خلال مدى بعدها أو قربها من القيم الدينية، ثم نحدد ما إذا كان تأثير محتوى تكنولوجيا المعلومات يعود على أفراد المجتمع بالنفع أو الضرر.

3- إنعكاسات تكنولوجيا المعلومات على النسق القيمي للفرد:

يكتسب الفرد في مرحلة التنشئة الإجتماعية مجموعة من القيم التي تكون في مجملها "نسقا متماسكا حيث تحتل كل قيمة في هذا النسق أولوية خاصة بالقياس إلى القيم الأخرى، وهذا الترتيب المُدَرج أو الهرمي للقيم" (عماد، 2008، صفحة 146) يتضمن نوعين من القيم، الأولى ذات طابع شمولي يرتبط بالأهداف الجوهرية للوجود الإنساني وإرتباطه بعالم الغيبيات، بحيث تؤطر هذه القيم رؤية الفرد للعالم وما يرتبط به من أحداث (مثلا قيمة: العدالة، الحرية، حب الخير ...) وهي ما يصطلح عليها **بالقيم الغائية،** أما النوع الثاني من القيم فهي التي تحدد سلوك الفرد أثناء تفاعله مع بقية أفراد المجتمع أو سعيه نحو تحقيق أهدافه الخاصة وهي ما يطلق عليها مصطلح القيم الوسيلية أي عبارة عن وسيلة أخلاقية يستعين بها الفرد في تفاعله مع بيئته الاجتماعية، وتكون عملية التأثير والتأثر بين هذين النوعين من القيم تبادلية إنعكاسية، بمعنى أن التأثر السلبي للقيم الوسيلية عند الفرد يؤدي إلى هشاشة وسلطة القيم الغائية لديه، فالقيم الوسيلية عبارة عن ذلك الحاجز المنيع الذي يحمي القيم الغائية من الضعف والإنهيار، كما أن القيم الغائية تدعم شرعية القيم الوسيلية عند الفرد ليجعلها المرجع الرئيس لسلوكاته أثناء تفاعله مع الآخرين.

وبحكم ما تحمله تكنولوجيا المعلومات من أيديولوجيا وأفكار وقيم مختلفة أصبحت القيم الوسيلية تواجه خطرا كبيرا عند تفاعل الفرد مع محتوى تلك التكنولوجيا، عكس القيم الغائية "لأن الأنساق الدينية الكبرى مثل المسيحية والإسلام على سبيل المثال، تحتفظ بديمومتها وإستمرارها وأصولها القيمية مع الأفكار والممارسات التي برزت قبل ألفي سنة أو أربعة عشر قرنا على التوالي، غير أن من الواضح أن مؤسسات المجتمع الحديثة تتغير بصورة أسرع مما نشهده في مجتمعات العالم التقليدي" (غدنز، 2005، صفحة 106)، ففي ضوء تكنولوجيا المعلومات والوسائط الإفتراضية كشبكات التواصل الاجتماعي والمواقع والمنتديات نجد الفرد يتفاعل مع الثقافات الكونية الأخرى تحت صدمة حضارية وثقافية تنتج عن غياب نقاط المرجعية التي إستهدى بها شطرا كبيرا من حياته الاجتماعية، بحيث أصبحت تلك المرجعيات لا تملك القوة ولا الحصانة الكافية لمواجهة القيم الثقافية المختلفة التي يتفاعل معها الفرد، وبالتالي تصبح هذه الثقافات الفرعية الدخيلة على المجتمعات –المحافظة أو المتخلفة علميا ومعرفيا– عن طريق الوسائط الإعلامية التكنولوجية تلعب دورا مهما في تشكيل مجالاً افتراضياً يستوعب حرية التعبير الفرد، وذلك من خلال طرح أفكار ومعتقدات مضادة أو معاكسة للقيم الثقافية المهيمنة على أفراد المجتمع في حيز مكاني وزماني معين، "فالمضمون المتداول رقميا هو مضمون حامل لقيم، وبخاصة أن التأثير في ضوء المجتمع الشبكي يتخذ طابعًا إنفعاليًا وبخاصة إذا كان في ضوء بيئة رقمية تساعد على تحقيق التأثير المرجو. ليس الأمر كذلك فحسب، بل حتى منطق الفعل ورد الفعل في ظل الشبكات الاجتماعية في تغير مستمر تحكمه متطلبات التواصل الإفتراضي عبر الشبكة المتزامنة واللا متزامنة، والتي قد تتطلب ردا فوريًا أو منقطعًا والتي تنعكس على منطق التواصل الإنساني" (بيبيمون، 2016)،

وبالتالي أصبحت العلاقات الإنسانية يطبعها الجانب الإفتراضي وما يرتبط به من أبعاد تجعل عملية التواصل تختلف بصورة واضحة عن تلك التي كانت عليه في السابق، حيث اصطدمت القيم الوسيلية الموجهة لسلوك الإنسان بهذا التغير الكمي والنوعي لعلاقات الفرد الاجتماعية والكونية، إذ أصبح النقاش في شبكات التواصل الاجتماعي ثري بمختلف الأفكار والمعارف والثقافات التي يتفاعل معها الفرد مما يفرض عليه إحترام حرية التعبير والإدلاء بالرأي مع الآخر، أو المشاركة الإيجابية في الأوساط الاجتماعية الإفتراضية في المنتديات مثلا، وإحترام خصوصية الآخرين بالإمتناع عن إختراق حساباتهم أو أجهزتهم الخاصة، إذًا نصبح أخلاقيات التواصل شرطًا أساسيا يبلور ويشكل لدى الفرد عند الإلتزام به مجموعة من القيم الوسيلية الحديثة التي فرضها منطق التواصل الإفتراضي عبر تكنولوجيا المعلومات، وأصبح من يتعدى أو لا يحترم تلك القيم عبارة عن عضو سلبي منبوذ من طرف المجتمعات الإفتراضية مما يستوجب الأمر بحذفه أو متابعته قضائيًا، فنلاحظ إذا أن الحيز القيمي الذي شكلته تكنولوجيا المعلومات وما تحمله من مواقع وشبكات أصبح يؤثر في عملية تصنيف وترتيب القيم لدى الفرد المتفاعل مع هذه الأوساط الإفتراضية.

وبالتالي "تأتينا تكنولوجيا المعلومات، وعولمتها، لتنذرنا بعالم جديد مليء بالإحتمالات وعدم اليقين، وكأننا مساقون إلى مصير لا ندري عنه شيئا، فنحن نعيش عالمًا تاهت فيه –من فرط تعقيده– المعالم الفاصلة بين النظام والفوضى، وبين الخاص والعام، وبين الذاتي والموضوعي، وبين الحياة في عالم الواقع

وسكن الفضاء الرمزي" (علي، 2001، صفحة 407)، وأصبح المتضرر الكبير هي تلك المجتمعات المتخلفة عن ركب الحضارة علميًا ومعرفيًا، متسببة بتخلفها تراجع القيم الاجتماعية والإنسانية العليا التي تحملها ديانة كونية متسامحة كالإسلام.

خلاصة:

إن منظومة الأفكار التي يتبناها مجتمع معين مبنية على نسق قيمي معقد بحسب التركيبة الاجتماعية لهذا المجتمع، حيث يتأثر النسق القيمي بعديد من التغيرات الطارئة على البنى الاجتماعية كالتطور الحاصل في مجال تكنولوجيا المعلومات بحيث تبرز قيم نابعة من الاتصال المباشر بالمجتمعات الأخرى بحكم العولمة، لكن درجة تقبل نمط جديد من القيم تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بطبيعة المجتمع في حد ذاته، والمعبر عنها بالحتمية القيمية أو الحتمية التكنولوجية كاتجاهات جدلية في تفسير هذه الظاهرة.

ففي ضوء تكنولوجيا المعلومات والوسائط الإفتراضية كشبكات التواصل الاجتماعي والمواقع والمنتديات نجد الفرد يتفاعل مع الثقافات المختلفة في العالم أجمع ، فتأثير هذه الثقافات عليه يكون منوطا ومرتبطا ارتباطا وثيقا بالمرجعية الثقافية التي يكتسبها من خلال المجتمع والقيم السائدة، فبغيابها تحدث للأفراد صدمات حضارية تؤثر عليهم، وبحضورها وقوتها زالت آثار الصدمة الحضارية الناتجة عن هذا الاختلاط.

قائمة المراجع:

1- أنتوني غدنز. (2005). *علم الإجتماع*. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

2- بداني فؤاد. (2014). حتمية ماكلوهان لفهم قيمية عزي عبد الرحمان . *مجلة الدراسات والبحوث الإجتماعية، جامعة الواد، العدد الرابع*.

3- جون تومنيلسون. (2008). *العولمة والثقافة*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

4- رمان وميشال ماتلار. (2005). *تاريخ نظريات الإتصال*. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

5- عبد الغني عماد. (2008). *سوسيولوجيا الثقافة*. بيروت: مركز درسات الوحدة العربية.

6- عبد اللطيف محمد خليفة. (1992). *إرتقاء القيم*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

7- كلثوم بيبيمون. (2016). السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي. *مجلة إضافات العدد 33* .

8- نبيل علي. (2001). *الثقافة العربية وعصر المعلومات*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

9- نصير بوعلي. (2014). مفاهيم نظرية الحتمية القيمية في الإعلام. *مجلة المستقبل العربي، العدد 422*، 89.

10- نور الدين تواتي. (2013). ماكلوهان مارشال: قراءة في نظريته بين الأمس واليوم. *مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة ورقلة، العدد العاشر*.